# الاحتفاء بمرور خمس مئة سنة

## على وفاة الامام السيوطي

الدكتور شاكر الفحام

كان الإمام جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ( ٨٤٩ – ٩١١هـ ) من أشهر علماء عصره ، وأبعدهم أثراً في خالفيه .

نشأ في القاهرة ، مستودع الحضارة العربية الإسلامية ومستقرها ، وأعلى مناراتها الهاديات ، فأقبل على التعلم إقبال منهوم مشغوف ، وقد رُزق الموهبة ، وأُوتي الجلد والصبر والمثابرة ، فما عرف الكلال سبيلاً إلى نفسه . وكان متوقد الذهن ، حيَّ الذاكرة : حفظ القرآن الكريم وهو ابن ثمان سنين . ثم حفظ جملة صالحة من المتون ، وشرع من بعدُ في الاشتغال بالعلم ، في مستهل سنة ٨٦٤هـ ، فقرأ على أكابر علماء عصره . وبدأ التأليف في سنٍّ مبكرة ، فألف شرح الاستعاذة والبسملة ، وشرح الحيعلة والحوقلة في زمن الطلب سنة ٨٦٥هـ ، وهو ابن ست عشرة سنة . وحظي بتشجيع أستاذه البلقيني فزاده ذلك ثقة بنفسه ، وأجيز بتدريس العربية سنة ٨٦٦هـ[1] ، وقد انتصب للتدريس في سنة ٨٧٠هـ ، وتصدى للإفتاء في سنة ٨٧١هـ ، وأملى الحديث سنة ٨٧٢هـ ، وتولى تدريس الحديث بالمدرسة الشيخونية سنة ٨٧٧هـ[2] .

---

(١) التحدث بنعمة الله : ١٣٧ ، ٢٣٩ ، حسن المحاضرة ١ : ١٥٦ – ١٥٧

(٢) التحدث بنعمة الله : ٨٨ – ٩١ ، حسن المحاضرة ١ : ١٥٧ ، مقامات السيوطي ١ : ٥٥٤



هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكان السيوطي واسع الثقافة ، طُلَعة ، امتدت لديه آفاق المعرفة ، وبرع في علوم شتى . ولكنه ، كما يذكر عن نفسه ، قد رزق التبحر في سبعة علوم هي : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع[٣] . وقد أكبَّ على التأليف حتى بلغت مؤلفاته حين ألف كتابه حسن المحاضرة نحو (٣٠٠) كتاب ، سوى ما غسله ورجع عنه[٤] . وعدّد السيوطي كتبه في أحد فهارسه ، فبلغ بها (٤٦٠) كتاب[٥] . ثم تجاوز مترجموه هذا العدد ، فبلغ بها بعضهم نحو ست مئة كتاب .

وتتجلى في مؤلفاته هذه الثقافة العريضة المتنوعة ، وقد نالت القبول والحظوة ، فانتشرت في البلاد ، وسارت بها الركبان ، وعلا صيتُ صاحبها ، وتألق نجمه ، ولقي ما لقي من التجلة والإكبار[٦] . وملأه الإعجاب بما كتب : « ... كتبي التي أصوغها صوغ الذهب ... ثم تطبّق الدنيا بعداً وقرباً ، وتسير إلى الآفاق شرقاً وغرباً ... وما في المشرق والمغرب الآن أحد إلا وهو داخل في العلم تحت لوائي ، ... فليس في الإسلام قطر إلا وقد وصلت تصانيفي إليه ، ولا مصر إلا وتجد شيئاً من كتبي لديه ، ووصلت إليّ من علماء الأمصار المطالعاتُ والرسائل .... »[٧] . وقد بلغ به الاعتداد بما كتب أن قسم مؤلفاته سبعة أقسام جعل قسمها الأول ما تفرد به من الكتب مما لم يؤلف له نظير في الدنيا ، وسرد في هذا القسم ثمانية

---

(٣) التحدثُ بنعمة الله : ١٣٨ ، ٢٠٣ ، حسن المحاضرة ١ : ١٥٧

(٤) حسن المحاضرة ١ : ١٥٧

(٥) مجلة عالم الكتب ، مج١٢ ، ع٢ ، ص ٢٣٥ ـ ٢٤٢

(٦) حسن المحاضرة ١ : ١٥٧ ، التحدث بنعمة الله : ١٥٥ ـ ١٥٩ ، مقامات السيوطي ١ : ٥٩٩ ـ ٥٦٣

(٧) مقامات السيوطي ١ : ٣٩٧ ، ٤١٩ ، ٢ : ٦٨٧

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عشر مؤلفاً[٨]

وكان السيوطي يحرص في كتبه على ذكر موارده ومناهله ، لا يُغفل ذلك إلا قليلاً : « وقد علم اللهُ والناسُ من عادتي في التأليف أني لا أنقل حرفاً من كتاب أحد إلا مقروناً بعزوه إلى قائله ، ونسبته إلى ناقله ، أداء لشكر نعمته ، وبراءة من دركه وعهدته »[٩] .

وإذا كان السيوطي في مسلكه هذا إنما يؤدي حق العلم ، ويلتزم الجادة التي سلكها السلف الصالح ، فقد أتاح له ذلك أيضاً أن يُطلع الآخرين على ما رُزقه من بسطة في العلم ، وإحاطة بما لم يحط به سواه ، وقدرةٍ لا تبارى في الكشف عن نوادر المصادر وأعلاقها النفيسة .

ورأى السيوطي ، وهو من هو علماً ومعرفة ، أن قد كملت له آلات الاجتهاد ، وأنه بلغ رتبة الاجتهاد المطلق[١٠] . وخال أنه المبعوث على رأس المئة التاسعة ليجدّد لهذه الأمة دينها[١١] . « وقد ترجّى الفقيرُ من فضل الله أن ينعم عليه بكونه هو المجدّد على رأس المئة . وما ذلك على الله بعزيز »[١٢] .

---

(٨) التحدث بنعمة الله : ١٠٥ ـ ١٠٦

(٩) مقامات السيوطي ١ : ٥٦٢ ـ ٥٦٣

(١٠) حسن المحاضرة ١ : ١٥٧ ، التحدث بنعمة الله : ١٩٩ ـ ٢٠٠ ، ٢٠٥ ـ ٢١٤ ، مقامات السيوطي ١ : ٣٨٨ ـ ٣٨٩ ، ٢ : ١٠٥٢ ـ ١٠٥٤ ، فيض القدير ١ : ١١ ، ومما قاله الشهاب ابن حجر الهيتمي : « لما ادعى الجلال ذلك قام عليه معاصروه ، ورموه عن قوس واحدة ، وكتبوا له سؤالاً فيه مسائل ... » ( فيض القدير ١ : ١١ ـ ١٢ ) .

(١١) حسن المحاضرة ١ : ١٥١ ، مقامات السيوطي ٢ : ٦٧٣ ـ ٦٧٥ ، ٦٨٦ ـ ٦٨٧ ، ٩٥٨ ، فيض القدير ١ : ١١ ، ٢ : ٢٨٢

(١٢) التحدث بنعمة الله : ٢٢٧

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« وهذه تاسعة المئين قد أتت ولا يخلف ما الهادي وَعَدْ
وقد رجوتُ أنني المجدّدُ فيها ففضلُ الله ليس يجحدُ[١٣] »

وكانت هذه الدعوى سبب الخصومة والتنازع بين السيوطي وطائفة من علماء عصره رفعت في وجهه راية الأنكار ، وسلقته بألسنة حداد ، فتصدى لها منددّاً بلسان سليط لاذع ، فهجا وسخر وجهّل ، ثم فاخر بنفسه ، وباهى بعلمه ومكانته : « ... على أن لي لساناً لو مددته لوصل إلى جبل قاف ، ولو نشرته لنسف رمال الأحقاف ، ولو أدخلته البحر المحيط لكدّره ثم سجره ، ولو أصعدته الجوّ لغبّره ثم سعره ... »[١٤] .

وخلّفت المعركةُ فيما خلفته آثاراً للسيوطي تتبين فيها حدته وسخريته وذهابه بنفسه ، منها : الدوران الفلكي على ابن الكركي ، وطرز العمامة في التفرقة بين المقامة والقمامة ، والكاوي في تاريخ السخاوي ، والمقامة الكلاجية في الأسئلة الناجية ، والمقامة المزهرية[١٥] ....

وشدّد خصوم السيوطي عليه الخناق ، وألّبوا عليه الناس والسلطان ، وأنهكته المعركة وهدّت قواه ، فآثر الانسحاب من الميدان ، وأوى إلى العزلة ، وقطع علائقه بالناس ، وترك التدريس والإفتاء ، وزهد في المناصب كلها[١٦] ، واعتذر لمريديه ومحبيه لهذا الابتعاد عن المجتمع بأن الزمان « زمان الصبر ، الصابرُ فيه كقابض على الجمر ، رأينا فيه ما أنذر به الرسول ...

(١٣) فيض القدير ٢ : ٢٨٢

(١٤) مقامات السيوطي ٢ : ٦٢٠

(١٥) مقامات السيوطي ١ : ٣٧٠ – ٤١٩ ، ٢ : ٦١٦ – ٨١٧ ، ٩٣٣ – ٩٥٧ ، ٩٥٨ – ٩٧١ ، ١٠٤١ – ١٠٥٥ ، وانظر جملة أخرى من مؤلفاته في هذا الباب في المقامات ٢ : ٩٦٠ – ٩٦١ ، وقد وردت المقامة المزهرية في كتاب التحدث بنعمة الله ( ص١٩٤ – ٢٠١ ) بعنوان : رسالة النجح في الإجابة إلى الصلح .

(١٦) مقامات السيوطي ٢ : ١٠٠١ – ١٠٠٦ ، ١٠٣٤

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من آيات وعلامات ... وما من آية منها إلا وقد أمر النبيُّ عليه الصلاة والسلام بأن يلزم العالم عندها خاصة نفسه ، ويجلس في بيته ويسكت ... »[١٧] .

وعكف السيوطي على التأليف والتصنيف ، مشيحاً بوجهه عن الدنيا ، وكأنما كان يردد لنفسه ما كان سبق أن قاله : « ... وأيّ شيء في الدنيا حتى يطلب تحصيلها بالفخر ، وقد أزف الرحيل ، وبدا الشيب ، وذهب أطيب العمر ... »[١٨] .

وظل التأليف ديدنه ودأبه ، والعزلة مذهبه ، حتى وافاه اليقين ، أحبَّ ما كان إلى الناس ، وآثره عندهم . وخلّف علماً عظيماً ، وكنوزاً من العلم نفيسة ، ما تزال منهل الواردين ، يعبون منها ما يروي ظمأهم إلى المعرفة .

وقد تنادت المؤسسات العلمية والأوساط الثقافية للاحتفاء بمرور خمس مئة عام على وفاة العالم الكبير السيوطي . وإن مجلة المجمع ليسعدها أن تشارك في الاحتفاء ، فتصدر هذا الجزء الذي تناول جوانب من سيرة الإمام السيوطي العالم الفذ ، وما كان لآثاره العلمية من شأن في إغناء المكتبة العربية .

ورجاؤنا أن يؤدي هذا الاحتفاء إلى قيام هيئة علمية تتولى نشر مؤلفات السيوطي المخطوطة ، وإعادة تحقيق المطبوع منها تحقيقاً علمياً ، لتكون منهل القاصدين من العلماء والمتعلمين ، يردون منها العذب النمير ، ويوالون النظر في آثار العالم الكبير إفادة منها ، ودراسة لها .

---

(١٧) مقامات السيوطي ٢ : ٩٩٨ ، وانظر المقامات ٢ : ١٠٠٠ ـ ١٠٠١

(١٨) حسن المحاضرة ١ : ١٥٧

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net